

دور السياق في فهم النص القرآني

The role of context in understanding the Qur'anic text

حنان خلف الله*

المدرسة العليا للأساتذة مسعود زغار - سطيف،

مخبر البحث في تعليمية اللغات

h.khalfallah@ens-setif.dz

تاريخ الاستلام: ٢٠٢٤/٠٢/١٠ تاريخ

القبول: ٢٠٢٤/٠٤/١٠ النشر: ٢٠٢٤/٠٧/١٨

ملخص: يسعى هذا البحث النظر إلى السياق القرآني ودوره في إبراز معناه من عدة زوايا، له علاقة وطيدة بفهم النصوص سواء تعلق ذلك بالسياق النصي أو السياق الخارجي، فمن ناحية السياق النصي نؤكد أنه لا يمكن فهم مقاصد القرآن دون اللجوء إلى كشف القرائن والسيقات النصية التي ارتبط بها المقام لكشف المعنى المقصود، وهذه القرائن تؤدي وظيفة المرشد للتعامل مع هذا الخطاب، ورغم ذلك فإنه يجب على المتلقي أن يحمل المعنى الظاهر للكلام على أنه يمثل قصد المتكلم ما لم تدل عليه قرينة لفظية أو معنوية، وإن تعارض المعنى الحقيقي للكلام مع المعنى الذي تقتضيه، وجب على المتلقي أن يلجأ إلى تأويل المعنى، بحيث يتعامل مع هذه النصوص تعاملًا كليًا بناءً على سياقاتها الداخلية، دون فصلها عن السياق الخارجي، والذي يشير في النص القرآني إلى أهمية أسباب النزول في فهم مقاصده، قصد تجنب الأخطاء التي قد يقع فيها الفهم الذي يهمل السياق سواء المؤسس على الآية أو على السورة بأكملها.

الكلمات المفتاحية: سياق؛ نص قرآني؛ سياق نصي؛ سياق خارجي؛ مناسبة.

Abstract: This research seeks to look at the Qur'anic context and its role in highlighting its meaning from several angles, it has a strong relationship with understanding text, whether it is related to the textual context or the external context, in terms of the textual context, we affirm that it is not possible to understand the purposes of the Qur'an without resorting to revealing the textual evidence and contexts that the place is linked to is to reveal the intended meaning, and these clues perform the function of a guide to deal with this speech, and in the true meaning contradicts the meaning it require, the recipient must resort to the meaning it require, so that he deals with these text completely based on their internal contexts, without separating them from the external context, the one who neglects the context, whether the understanding based on the verse or the entire surah.

KeyWords: Context; Qur'anic text; Text context; External context; Occasion

*حنان خلف الله

المقدمة:

تتحلى أهمية القرآن في حياة المسلمين من خلال كثرة الدراسات القرآنية التي تُجرى وتُنشر باستمرار، ووجود هذا الاهتمام الواسع يُظهر قيمة وتأثير على الفرد والمجتمع، وقد أثر إعجاز القرآن بشكل كبير في هذا السياق، حيث يجذب أسلوبه المتميز والمتفرد بين الباحثين والمفكرين من مختلف الثقافات والخلفيات.

مما يحسن التنويه به في هذا الشأن أن مختلف الدراسات القرآنية من تفسير وتأويل والتي اتخذت من النص القرآني موضوعا للبحث والدراسة، تعد النواة الأولى لتحليل الخطاب القرآني، وإن اختلفت الآليات والمناهج البحثية، وأصحاب المدونات التفسيرية كانوا على وعي تام بأن فهم الخطاب لا يتم باستحضار المستويات اللغوية الشكلية؛ فالأصوات والصرف والتركيب لا تفيد المعنى بالضرورة، بل لا بد من استحضار السياق اللغوي وغير اللغوي، أي أسباب النزول وملابسات النزول باعتبارها عوامل أساسية من عوامل تحديد المعنى.

سنتحدث في هذا المقال عن السياق ونبين أثره في فهم النص القرآني وتوجيه دلالاته وبيان مقاصده، وذلك باتخاذ نماذج لكيفية تحكيم هذا المنهج السياقي في فهم النص انطلاقا من سياقه اللغوي وما يدل عليه، وسياقه الخارجي.

فما أنواع السياق؟ وما دوره في فهم النص القرآني؟ وكيف يمكن الاستعانة به لاستخراج مكونات النص؟ وللإجابة عن هذه الأسئلة اعتمدنا على المنهج الوصفي التحليلي، فالوصفي يتمثل في ذكر المفهوم اللغوي والاصطلاحي للسياق، والدور الذي يلعبه في فهم النص القرآني، وأما التحليلي فيتمثل في ذكر السياق النصي والسياق الخارجي مع إعطاء أدلة من النص القرآني وشرحها وتحليلها.

١. دور السياق في فهم النص القرآني:

إن السياق يعتبر عنصرا حيويا في فهم وتفسير الرسالة اللغوية، سواء كانت ذلك في اللغة التواصلية أو النصوص الدينية، والقرآن الكريم يساعد في توضيح المعاني والمفاهيم التي تنقلها اللغة، ويعطي مفاتيح الفهم الدقيق للنصوص، ويؤكد الشاطبي عند قوله أنّ القرآن نزل بلسان العرب، وإنه عربي لا عجمة فيه، فإننا نعني أنه اتسم بألفاظه العربية وأساليبه اللغوية، وكان متماشيا مع اللغة والأساليب المألوفة للعرب في ذلك الزمن. (الشاطبي، ٢٠٠٣، صفحة ٤٣)، ولذلك يعتبر فهم السياق العربي القديم والظروف الاجتماعية والثقافية التي كانت سائدة في عصر النزول أمرا بالغ الأهمية لفهم القرآن بشكل صحيح ومتكامل.

ويرى في موضع آخر أنّ فهم الشريعة الإسلامية يعتبر إتباع معهود الأمين، وفهم السياق العربي المعاصر أمرا بالغ الأهمية، إذ يُسهم فهم العرف المستمر لدى العرب في تفسير الشريعة وتطبيقها بطريقة تتماشى مع الثقافة (الشاطبي، ٢٠٠٣، صفحة ٥٣)

إنّ فهم دلالات القرآن الكريم يستند بشكل أساسي على فهم معاني اللغة العربية كما كانت معهودة في زمن النزول، واللغة البشرية تتغير وتتطور مع مرور الزمن، وبالتالي تتغير دلالات الكلمات والمفاهيم معا، ولذلك يجب على المفسرين أن يأخذوا بعين الاعتبار السياق الزمني والثقافي للنصوص القرآنية عند تفسيرها.

يشكل السياق جزءا أساسيا في دراسة اللغة والأدب، وقد اهتم العديد من النقاد وعلماء اللغة والأدب بفهمه وتحليله من منظورات مختلفة، فدرس أوستين أهمية استخراج السياق من خلال البنى المختلفة للرسالة اللغوية، حيث يعتبر السياق عنصرا حيويا لفهم المعنى والتفاعل بين اللغة والمتلقي، كما أبرز علماء الأسلوب علاقة الأسلوب بمقتضيات السياق المقامي؛ أي السياق الذي يتم تحديده من خلال الموقف والظروف الاجتماعية والثقافية الذي ينطوي عليها النص في تحليل النصوص الأدبية، كما فعل ميخائيل باختين ونورثروب فراي وغيرهم (العموش، ٢٠٠٨، صفحة ٢٦).

فالسّياق يلعب دورا حيويا في تحديد معاني الخطاب وفهمها، وهو يساهم في إضافة أبعاد جديدة وتفسيرات متعددة للنص، فالمرسل يختار الكلمات والعبارات وفقاً للسياق الذي يتوقع أن يفهمه المتلقي، وقد يقوم بتعديل الخطاب أو التلميح إلى معانٍ إضافية تتناسب مع السياق المحيط، مما يعني أن للخطاب معنى مباشرا يتضح من الألفاظ المستخدمة والتركيب الجملي، غير أنه قد يمنح السياق للخطاب أكثر من قصد، يضيف معانٍ إضافية أو يوجه فهمًا معيّنًا للخطاب، وهذا يجعل السياق محوريا في فهم الخطاب ومنحه الدلالة المناسبة.

ومن الملاحظ أن الإخبار لم يعد الهدف الوحيد للمرسل في الخطابات الحديثة، فقد تكون للإخبار وظيفة واحدة من بين عدة أهداف تسعى إليها الخطابات، ويمكن أن يكون هناك قصد آخر يخبئ وراء الإخبار، والذي يمكن أن يكون رفضا لشيء معين أو تحكما، ولذلك يفضل المرسل استخدام الاستراتيجيات التلميحية بدلا من الخطاب المباشر بالاعتماد على التلميح، ويمكن للمرسل أن يعبر عن قصده بطرق متنوعة، دون اللجوء إلى الخطاب المباشر الذي قد يكون مباشرا جدا، أو واضحا للغاية، وقد يُفضل المرسل استخدام التلميحات للتعبير عن مشاعره أو آرائه بطريقة أكثر غموضا وذكاء. (الشهري، ٢٠٠٤، صفحة ٣٦٨)

وفي محاولة ربط النص القرآني بالسياق الذي يعد شيئا مهما في فهم المقاصد التي يصبو القرآن الكريم إلى تحقيقها، لجأنا إلى تقسيم هذا السياق إلى قسمين أساسيين، بناء على تدبر مختلف الاستراتيجيات التي تهدف في النهاية إلى إيصال المقاصد إلى المتلقي ليفهمها، ومن هنا يمكننا الحديث عن السياق النصي والسياق الخارجي، وكلاهما مهم لفهم النص القرآني.

١.١. السياق النصي:

إنّ الفهم الصحيح لأساليب التفسير والتعامل مع النصوص القرآنية يعكس فهما عميقا للمقاصد والأهداف التي يسعى القرآن إلى تحقيقها، ويعتبر كشف القرائن والسياقات النصية أمرا ضروريا لفهم المعاني الحقيقية للنصوص القرآنية، والوصول إلى المقاصد التي أرادت إيصالها، عندما يتعلق الأمر بتفسير النصوص القرآنية، ويعتبر السياق النصي دليلا أساسيا يساعد في استنباط المعاني وتفسيرها بشكل صحيح، فعلى المتلقي أن ينظر إلى السياق النصي بعناية،

وأن يعمل على استنباط المعاني الحقيقية للنصوص من خلال تحليلها وتفاعلها مع السياق المحيط، وتكثر هذه الحالة خاصة مع الاستراتيجيات غير المباشرة التي لجأ إليها القرآن الكريم ليلج بها عن القصد الذي يمكن فهمه من خلال السياق الداخلي للنص، ومن بينها:

١,١,١. أن المرسل يعتمد في استخدام أسلوب التأدب على مجموعة من الأبعاد والاعتبارات التي تشمل البعد الشرعي: فهو يحث الإسلام على اللطف والتواضع في التعبير، ويمنع عن الفحشاء والسب والشتيم، مراعيًا تعاليم الدين وأخلاقياته، والبعد الاجتماعي الذي يحترم المرسل آراء ومشاعر الآخرين، ويسعى إلى عدم إساءة استخدام اللغة أو التعبير بطرق قد تثير الاستياء لدى الآخرين، فالاحترام والتواضع في التعبير يسهمان في بناء علاقات إيجابية ومتوازنة مع المحيط الاجتماعي، والبعد الذاتي الذي نجد المرسل يحافظ على صورته الذاتية وسمعته، ويتجنب التلفظ بالأقوال التي قد تسيء إليه أو تضر بسمعته، فالاعتناء بالتعبير عن أفكار بطرق محترمة ولطيفة يعكس احترامًا للذات وللآخرين بهذه الطريقة يكون التأدب جزءًا أساسيًا من السلوك اللغوي الاجتماعي، ويساعد على بناء جسور التواصل وتعزيز التفاهم بين أفراد المجتمع. (الشهري، ٢٠٠٤، صفحة ٣٧١)

ويؤكد سيرل أن التأدب الذي يعد من أبرز الدوافع لاستعمال الإستراتيجية غير المباشرة في الطلب، وهناك صيغ معينة تكاد تكون بطبيعتها طرقًا عرفية للتأدب في إنجاز الطلب غير المباشر (المسدي، ١٩٨١، صفحة ١٥٢) وقد استعمل هذا النوع في القرآن الكريم في مجال بثه الرسل إلى أقوامهم، وهذا الأسلوب يهدف إلى التأثير بشكل إيجابي على قلوب المدعوين وجعلهم يستجيبون لدعوتهم، كما هو الحال عند إرسال موسى إلى فرعون في سورة النازعات، الآيات: ١٥-١٩.

تبدأ الآيات باستفهام للتمهيد وإعداد النفس لتلقي القصة، فتبدأ أحداثها بنداء موسى ومناجاته، وهو بالوادي المقدس طوى، ونداء الله لعبده من عباده أمر هائل، وسر من أسرار الألوهية، لذلك هيأه الله لمواجهة هذا الطاغية بأسلوب محب، يدعوه إلى التنازل عن طغيانه بطريقة الالتماس، إذ لم يقل له تنازل عن طغيانك، وقد تعرف فرعون على مقصد موسى الذي يدعوه إلى عبادة الله الواحد الأحد، ولكن طغيانه وجبروته منعه من الاستجابة لخطاب الداعي.

٢,١,١. الربط بين اللفظ والقصد ليس محصورًا فقط بالعلامة اللغوية؛ بل يتطلب أيضًا فهم السياق والقارئ المحيطة بالنص لفهم المعنى الحقيقي، والقصد من وراء اللفظ في الواقع، قد يكون اللفظ الذي يُستخدم في النص لا ينقل معناه الحقيقي بشكل دقيق، ولكن يعتمد فهم المتلقي على القرائن السياقية والثقافية والمعرفية لفهم المقصود من النص، وقد يتم استخدام كلمات بشكل غير حري في التعبير عن أفكار معينة أو للتعبير عن رؤى أعمق في سياق الحوار القرآني (بوقرة، ٢٠٠٦، صفحة ١٩٩)، ويشمل الكناية والتلميح والسائل بغير ما يطلب، كما حدث عند سؤال الناس عن الأهلّة، كما ورد في القرآن الكريم وعند الأصوليين سمي بدلالة المخالفة (بوقرة، ٢٠٠٦، صفحة ١٩٩)، وقد طورت هذه الفكرة في مفاهيم المتضمنات والافتراضات المسبقة.

والتعريض له علاقة بقواعد التعاون وقواعد السلوك الاجتماعي عند غرايس، وخاصة قاعدة العلاقة، وقد يكون بشكل غير مباشر وملتبس مفضلا عن التعبير المباشر عن الأفكار، وهذا يعكس احترام المرسل لقواعد العلاقة والسياق الاجتماعي الذي يتم فيه التواصل، والتعبير بطريقة تلميحية قد يكون أكثر لطفا واحتراما للآخرين (الشهري، ٢٠٠٤، صفحة ٤٢١)

ومن أمثله في القرآن الكريم ما جاء في سورة القصص، الآية: ٢٦، ويظهر لنا في هذه الآية كيف استخدمت الفتاة لغة التلميح والاقتراح بشكل ملموس وواضح وذكي، دون أن تذكر اسم موسى مباشرة، ولكنها وصفت الصفات التي رأتها فيه بوضوح، ولما رأت الفتاة من موسى من الصفات الحميدة مثل القوة والأمانة، قررت أن تقترح على والدها استئجاره لرعي الغنم، وهذا النوع من التعبير يظهر فهمها العميق للظروف والقدرات، وكذلك فهمها لقدرات موسى وكفاءته في العمل، وعندما قدمت اقتراحها بشكل غير مباشر، كانت تعرف أن والدها سيفهم قصدها بشكل صحيح (قطب، ٢٠٠٤، صفحة ٢٦٨٧) وهذا لما رأته منه لما كان الرعاء يسقون فاستمهلهم وسقى لها ولأختها فعرضت على أبيها اقتراحها، وفي بساطة فهم قصدها، فعرض إحدى ابنتيه من غير تحديد، ولعله كان يشعر أنها محددة، وهي التي وقع التجاوب والثقة بين قلبها وقلب الفتى، عرضها في غير تخرج ولا التواء (قطب، ٢٠٠٤، صفحة ٢٦٨٨)، ويتضح ذلك أكثر في سورة القصص، الآية: ٢٧.

تُظهر هذه الآية التعامل اللغوي والثقافي الراقي الذي اتبعته الفتاة عندما عرضت زواجها من موسى على والدها، واستخدمت الفتاة لغة التلميح بالتعريض بطريقة محترمة ومهذبة، دون الإساءة إلى أحد أو تحطيم مشاعر أحد، بدلا من التصريح بشكل مباشر، فالمتلقي يجب أن يصل بفضل ملكات الفهم إلى محتواه الكامن وراء جملة من الاستعارات وأشكال الكناية والمجاز (حمداني، ٢٠٠٣، صفحة ٦٤)، وهذا ما أشار إليه عبد القاهر الجرجاني في كتابه: العروة الوثقى في ترتيب الكتب الشرعية، حيث يؤكد أهمية التواصل والتعبير عن الأفكار والمشاعر والمقاصد بوضوح وصدق، ويشجع على التحدث والتواصل بصدق، لكشف الأفكار والمشاعر والتوجهات الداخلية. (الجرجاني، ٢٠٠٥، صفحة ٤٧)

وبما أنه لا يربط بين لفظ التعريض وقصد المتكلم أي روابط لغوية، فقد فهم الشيخ قصد ابنته، فعرض على موسى تزويجه إحدى ابنتيه، وقد تيسر التعامل الخطابى بين الأطراف المتحاور، ذلك أن ما يدعو لاستعمال التعريض بكثرة هو رغبة المرسل في الظفر بحاجته دون أن يؤثر سلبا في نفوس الآخرين، سواء أكان هدفه شريفا أم ضيعا (الشهري، ٢٠٠٤، صفحة ٤٢٤)، فالمتكلم يستعمل التعريض في خطابه متى كان واثقا من أن المتلقي يفهم قصده، فسوف يضطر إلى التصريح به لفظا، أو باستعمال علامات غير لغوية، حتى يتفطن المتلقي إلى قصد المتكلم.

١، ١، ٣. كما يستعمل المتكلم تقنية التهكم باعتبارها إحدى الاستراتيجيات غير المباشرة التي يفهم معناها من سياق الكلام، كونها تستلزم قصدا غير ما يدل عليه الخطاب بمعناه الحرفي، وعلماء البيان يعتبرون إخراج الكلام على ضد مقتضى الحال، أي التناقض ييم ما يقوله المتحدث، وما يظهر عن حالته الفعلية - كشكل من أشكال الاستهزاء

بالمخاطب-ويمكن أن يكون هذا جزءاً من دراساتهم حول البيانات والتواصل اللغوي. (العلوي، ١٩٩٥، صفحة ٤٧٦).

ومن بين هذه الألفاظ استخدام كلمة (نزل) في غير موضعها، كقوله تعالى في سورة آل عمران، الآية: ١٩٨، وفي سورة السجدة، الآية: ١٨، وفي سورة الواقعة، الآية: ٩٢-٩٤، وفي سورة الواقعة، الآية: ٥٦، كما جاءت هذا اللفظة في سورة الكهف، الآية: ١٠٢.

لقد تواترت لفظة (نزل) في آيات عدة من القرآن الكريم، وجاءت دائماً مقترنة بمأوى الكفار يوم الآخرة، تحمل تحكما وسخرية مريّة، ذلك أنّ النزل في اللغة العربية هو الذي يشير إلى الضيافة أو استقبال الضيوف وفي السياق يشير النزل إلى التحضيرات والتجهيزات التي يقدمها المضيف كتكريمة أو تقدير للضيوف قبل حضورهم، ويظهر هذا النوع من الاهتمام بضيافة الضيوف واحترامهم. (الزركشي، ١٩٧٢، صفحة ٢٣٢)

يتضح من خلال السياق القرآني أن استخدام كلمة (نزل) في الآيات التي تشير إلى العذاب والنار للكافرين، يأتي بمعنى ساخر وتهكمي، حيث يكون جاهزا ومهيأ لاستقبالهم دون حاجة لأي جهد إضافي أو انتظار، والاستعداد الشامل والسريع لاستقبال الضيوف بمنتهى الرحابة والكرم، فهم حاضرون ينتظرون النزلاء الكفار (قطب، ٢٠٠٤، صفحة ٢٢٩٥)، حيث يتنافى هذا المعنى مع المفهوم التقليدي للضيافة والاستقبال الحسن، فالنار في جهنم تصور كمأوى للكافرين في معنى بدل على العذاب والتنكيل، بينما يتوقع المرء من مصطلح (نزل) أن يرتبط بالضيافة والراحة، ومن ثم سيفهم المتلقي قصد المتكلم في خطابه التهكمي رغم كونه غير مباشر، ذلك أن موضع الكفار في نار جهنم يتناقض مع ما يقدم النازل من حسن الضيافة، فجاءت الآيات بطريقة ساخرة مرة، وقد استعملها السياق القرآني بقصد مضاد لمعناها تماما.

فالتعبير يظل ثابتا في تمثيل قصد المرسل، وعادة ما يكون له معنى محدد يشير إلى الاستعداد الكامل والسريع لاستقبال الضيوف بدون تأخير أو انتظار، وتلك الجاهزية المسبقة تعكس حرص المضيف على استقبال الضيوف بأفضل الطرق وتوفير الراحة والترحيب بهم. (الشهري، ٢٠٠٤، صفحة ٤١٦)

ومثل هذا التهكم واضح في سورة الرعد، الآيتين: ١٠-١١، فعلم الله محيط بجميع المخلوقات، ولا شيء يخفى عليه، سواء كان ذلك القول مرتفعا أو خفيا، وسواء كان في الظلام الدامس أو في ضياء النهار، فالله يعلم ذلك. وتفسير المعقبات بالحرس حول السلطان يشير إلى الحراسة والمراقبة التي تحيط بالحاكم أو السلطان، ويظهر هذا التعبير استعداد الحراس لحماية السلطان والحفاظة على أمنه وسلامته، وفكرة التهكم على السلطان أو تقديمه كأنه يعتمد على الله في حفظه؛ لأنهم يقولون لا يمكن حمايته من أي شيء إذا جاءه، مما يشير إلى قلة الثقة في قدرتهم على حمايته بشكل كامل. (الزركشي، ١٩٧٢، صفحة ٢٣٢)

فالسبب يخلو من كل الآليات والأدوات التي قد يستعملها المتكلم للتعبير عن قصده التهكمي، وهذا نتيجة وجود ما يملأ هذا الفراغ، وهو علم المتلقي أنّ هذه المعقبات مهما كانت فإنها لا يمكن أن تحفظ الإنسان من أمر الله، ومن هنا يتأسس الاختيار بين التأويل الحرفي، أو التأويل التهكمي على معلومات المفووظ الخارجية (الشهري،

٢٠٠٤، صفحة ٤٢٠)، وهي المعرفة السياقية التي تدل على قدرة الله وحده على الحفظ وتكفله بذلك، فإله يتحدث عن المعقبات التي تحفظ الإنسان من أمره، وذلك تلميح إلى التهكم بهذا الإنسان الذي يعتقد أنه بإمكانه أن يحفظ من غير الله، فعبّرت الآية بالتهكم لعكس القصد، ولكنها عبرت بالسمة الأدنى التي استلزمت بيان السمة العليا.

٢. السياق الخارجي:

فهم السياق الخارجي وأسباب النزول يعزز فهما للنص القرآني ويساعدنا في تفسيره بشكل أفضل، وإدراك الظروف التي أنزلت فيها الآيات يمكن أن يسلط الضوء على المعاني العميقة للنص ويوضح السياق الذي أدى إلى تنزيله، فمعنى السبب هو معنى معرفة مقتضى الحال، ومن ذلك معرفة الجوانب الثقافية والاجتماعية والتاريخية للمجتمع العربي، وفي أقوالها وأفعالها ومحاري أحوالها حالة التنزيل، وإن لم يكن ثم سبب خاص (الشاطبي، ٢٠٠٣، صفحة ٣١١)، ولذلك قد تؤدي الغفلة عن أسباب التنزيل إلى الخروج عن المقصود بالآيات.

ففهم أسباب النزول يساعد في فهم مراد الكلام والغاية من الآيات القرآنية، ومحددة له في رفع الإشكال وتبديد الشبه عن ظاهر النص (السعدني، ١٩٩٤، صفحة ٧٣)، وفائدته أن محل السبب لا يجوز إخراجه بالاجتهاد والإجماع، فتوضيح السبب والسياس الذي نزلت فيه الآيات يسهم في فهم سليم للنص القرآني ويمنع التأويلات الخاطئة التي قد تنشأ بسبب الجهل بالسياق الذي نزلت فيه الآيات (الزركشي، ١٩٧٢، صفحة ٣٧).

فمعرفة سبب النزول يساعد في فهم مضمون الآيات القرآنية بشكل أكثر دقة وصحة، ومن ذلك قوله تعالى في سورة المائدة، الآية: ٩٣، ففي آية تحريم الخمر معرفة سبب نزولها تزيل الشبهات وتوضح الحكمة والغرض من تلك الآية أن التحريم جاء لأسباب دينية وشرعية تتعلق بصحة المجتمع وسلامته، وتاريخ نزول الآيات والسياس الذي نزلت فيها يسهم في إزالة سوء الفهم والتأويلات الخاطئة (ابن كثير، ١٩٩٤)، فمعرفة السياق الذي نزلت فيه هذه الآية هو الذي يحدد الفهم الصحيح لها، فيزيل الإشكال.

وهذا ما نلاحظه أيضا في سورة آل عمران، الآية: ١٨٨، حيث لا تكتفي الدلالة اللغوية لفهم هذه الآية من غير ربطها بالسياق الخارجي الذي ترتبط به الظروف التاريخية والاجتماعية المحيطة، وتوضيح سبب النزول يسهل فهم المعنى العميق للآيات ويضيف إلى التفسير فهما أعمق وأوسع، وسياس الآيات يعطي معنى واسع ويساعد في فهم الرسالة الكاملة التي أراد الله تبارك وتعالى إيصالها من خلال القرآن الكريم، وتاريخ النزول والأحداث المحيطة بالآيات يمكن أن يوضح المواقف والظروف التي دعت إلى نزول تلك الآيات والرسائل التي أراد الله إيصالها إلى الناس في ذلك الزمان، لذا فإن ربط القول بالسياق الخارجي يساعد في فهم الرسالة الكاملة، ويضيف إلى الفهم الصحيح للنص القرآني، ويمنع التأويلات الخاطئة والفهم السطحي (النيسابوري، ١٩٨٨، الصفحات ٨٨-٨٩)، فندرك أهمية ربط القول بالسياق الخارجي الذي يرد فيه، فهو من متممات الكلام، فعن طريقه يمكن ضبط الدلالة المقصودة التي قد لا تبسط في التركيب اللغوي.

وكذلك قوله تعالى في سورة البقرة، الآية: ١٨٩، حيث لا يمكن الوقوف على الفهم الملائم لهذه الآية دون الرجوع إلى السياق الاجتماعي الذي يتمثل في العادات والتقاليد الاجتماعية السائدة في المجتمع الجاهلي في ذلك الوقت، والتي جاء القرآن الكريم ليقومها ويضع الأمور في نصابها. (خليل ع.، ٢٠٠٧، صفحة ٢٠٩)

ففي الآية السابقة ارتباط وثيق بين التركيب اللغوي والسياق الخارجي الذي تعلق به، ولا يمكن تفسير ذلك إلا به معاً؛ حيث يؤكد الطبري بأن الأحاديث توضح في السياق الذي يرتبط بالسبب في نزول الآية، فكيف كان الناس في الجاهلية يمارسون عادات غير محسنة عند دخول البيوت، وكانوا يتجنبون الدخول من الأبواب الأمامية تعبيرا عن عدم الاحترام لحقوق الآخرين وعدم مراعاة الآداب الاجتماعية، ومع دخول الإسلام حاول الرسول عليه الصلاة والسلام تغيير هذه العادات السلبية، والتأكيد على أهمية الاحترام والأدب في التعامل مع الآخرين، لذا نزلت هذه الآية لتوجيه الناس إلى أهمية التقوى والاحترام في تعاملهم مع بعضهم البعض، وبفهم هذا السياق والسبب في نزول الآية، يتضح للمؤمنين كيف أمر الله تعالى التصرف بأدب واحترام في جميع الأمور، بما في ذلك دخول البيوت، وكيف يجب عليهم أن يكونوا مخلصين ومتقين في تعاملهم وتصرفاتهم، وهو ما يعكس توجيهات الدين الإسلامي نحو بناء مجتمع مترامح ومتقبل للآخرين (الطبري، ٢٠٠٠، صفحة ٥٥٦)، فانطلاقاً من سبب نزول هذه الآية بين المفسرون المقصود منها.

ومما ارتكزوا عليه أيضاً -دائماً ضمن السياق الخارجي- اعتمادهم على المناسبات في الفهم والتفسير، وهذا ما وجدناه في الآيتين التاليتين:

- الأولى في سورة البقرة، الآية: ٢١٦.

- والثانية في سورة النساء، الآية: ١٩.

حيث نلاحظ أن الآيتين تعالجان موضوعاً واحداً؛ وهو كره الشيء أو حبه، لكنهما مختلفتان؛ لأن كل واحدة سبقت في مقام حالي مخصوص؛ فتحليل الآيات القرآنية يبرز الدقة في التمييز بين السياقات والمواقف المختلفة التي تتعامل معها، وفهم السياق والتأمل في المواقف التي أنزلت فيها يساعد على استيعاب معانيها بشكل أفضل وتطبيقها في الحياة اليومية، فالآية ٢١٦ من سورة البقرة بحث المؤمنون على التفكير في الأمور والقرارات التي قد تكون غير مرغوبة أو تثير الكره، مشيراً إلى أن الله قد يجعل في تلك الأمور خيراً كثيراً رغم اعتقاد الإنسان بالعكس.

وأما الآية ١٩ من سورة النساء فتعالج القضية من زاوية شخصية تتعلق بالعلاقات الزوجية، حيث يواجه الإنسان تحديات في الحياة الزوجية قد تجعله يفكر في القرآن، ولكن الآية تشير إلى أن الله قد يجعل في تلك الأمور خيراً ينبغي على الإنسان أن يتفائل ويبدل الجهد لتجاوز الصعوبات بدل التسرع في اتخاذ القرارات.

وبالفعل فهم هذه الآيات بالتأمل في السياق والمواقف الذي أنزلت فيها يساعد في استيعاب الدروس والعبر التي تحملها وتطبيقها في الحياة اليومية. (الحسني، ٢٠٠٧، صفحة ٨٥)

وهكذا فإن الجهل بالمناسبة في مثل هذه الآيات يصعب معه الإدراك لأغراض النصوص، ويحملها في أغلب الأحيان إلى غير مقصدها، ولن يتحقق لنا هذا ما لم نكن على إلمام بخلفية التنزيل، فالكيفية التي تسهم بها أسباب

النزول في فهم الآيات تحقق فاعليتها مما يجعلها سندا قويا في توجيه النص إلى ما يفني بالغرض ويحقق الهدف، ولهذا يؤكد الشاطبي أن معرفة أسباب التنزيل لازمة لمن أراد علم القرآن (الشاطبي، ٢٠٠٣، صفحة ٢١٤)، فعلم القرآن يعني به المعرفة الكاملة، وإدراك ما ترمي إليه الآيات، ولن يتم ذلك إلا بالتعرف على الأسباب، ويرى ابن تيمية أن معرفة أسباب النزول تعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب (ابن تيمية، ١٩٧٢، صفحة ٤٧).

فعلى الدارسين والمتلقين للقرآن أن يسعوا جاهدين لفهم أسباب النزول والسياقات التي جاءت فيها الآيات، ليتمكنوا من استشراف معانيها وتطبيقها بشكل صحيح ومفيد في حياتهم اليومية، وفي فهمهم للدين والشرعة.

٥. الخاتمة:

ومن هنا يتبين لنا أنّ السياق غير اللغوي يلعب دورا في فهم النصوص القرآنية وتفسيرها بشكل صحيح، من خلال الاستناد إلى أسباب النزول والسياق الاجتماعي والتاريخي والثقافي الذي نزلت فيه الآية، يمكننا أن نفهم المقصود من النص، وتطبيقه بشكل صحيح في حياتنا اليومية.

فالسّياق التاريخي يوضح لنا الظروف والمواقف التي كانت تحيط بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم، وبالمسلمين في ذلك الوقت، ويساعدنا على فهم تفاعلاتهم مع النصوص القرآنية وكيفية تطبيقها، والفهم السليم للآيات التي تتعلق بالأحكام الشرعية والأخلاقية يتطلب التأمل في السياق التاريخي وحتى الاجتماعي، والذي قد يكون مرتبطا بأحداث تاريخية معينة أو بظروف اجتماعية خاصة، وبالتالي فإن الاعتماد على السياق غير اللغوي يساهم في إزالة الغموض والتباس بعض الآيات، ويساعد في تحديد المعاني الحقيقية، والتطبيق السليم لتعاليم القرآن الكريم في الحياة اليومية.

وكثير من الأحيان نجد أن إدراك مقاصد الخطاب القرآني يعتمد على فهم أهداف المتكلم ورغباته، وهذا يتطلب النظر إلى السياق الشامل للنصوص القرآنية والتأمل في الظروف التي نزلت فيها الآيات والسور، وقد تأتي بعض الآيات بمعانٍ تبدو متناقضة في السياق الظاهري، ولكن الإدراك الصحيح لمقاصد الخطاب يمكن أن يساعد في تفسير هذه المعاني وفهمها بشكل أوسع وأعمق، فالقرآن الكريم يتحدث إلى الناس بلغة واقعهم وظروفهم، ويتناول قضاياهم ومشاكلهم، ويقدم لهم الإرشاد والحكمة للتعامل معها.

ومن خلال دراسة السياق والتفكير في مقاصد الخطاب، يمكننا فهم الرسالة القرآنية وتطبيقها بشكل أكثر فاعلية في حياتنا اليومية، وفهم المقاصد يعزز الفهم الشامل للدين والشرعة.

إن دلالة النص تتضح من خلال تحليل بنائه اللغوي، ثم العودة إلى سياق إنتاجه، سواء كانت قرآنية أو غيرها، والنظر إلى بنية النص وتحليل عناصره اللغوية يساعد في فهم كيفية تركيب الجمل والعبارات، وكيفية تنظيم الأفكار والمفاهيم في النص، ويساعد العودة إلى السياق الذي نشأ فيه النص على فهم الظروف التي ألهمت كتابته، والمعاني التي كان يرغب في توصيلها المؤلف، فالنصوص لا تنفصل عن سياقها الثقافي والاجتماعي والتاريخي؛ بل يتفاعل معها ويؤثر فيها.

وبالتالي فالاهتمام بعموم اللفظ وخصوص السبب يعطينا فهما أعمق وأكثر اتساقا للنص، ويمكننا من استيعاب المعاني المختلفة التي يمكن أن تتضمنها النصوص، وهذا النهج المتكامل في فهم النصوص يساعدنا على استنباط المعاني بشكل أفضل وأكثر دقة، ويساهم في فهم الرسالة التي يحملها النص بشكل كامل.

ولفهم الخطاب القرآن يتطلب النظر إلى عدة جوانب وعوامل تتعدى البنية اللغوية الداخلية للنص، وفهم القرآن يتضمن النظر إلى السياق الاجتماعي والتاريخي والثقافي الذي نشأ فيه، وكذلك فهم الأحداث والظروف التي دعت إلى نزول الآيات.

بالإضافة إلى ذلك يشمل فهم الخطاب القرآني استيعاب مقاصد الشريعة، والهدف النهائي للرسالة القرآنية، ويعتبر هذا الفهم العميق جزءا من الاستدلال الشرعي، والتأمل في حكمة الله تعالى من خلال الأحكام والتوجيهات التي وردت في القرآن الكريم، وبالتالي يجب أن نتعامل معه كنص شامل يتفاعل مع سياقه الخارجي والداخلي، ويتأثر بالظروف التاريخية والاجتماعية والثقافية، والتي كانت سائدة في زمن نزوله، وهذا التفاعل يساعدنا في فهم مقاصد الشريعة والرسالة التي يحملها القرآن بشكل أكثر دقة.

قائمة المراجع:

Halliday Michael Alexander Kirkwd and Ruqaiya Hassan. (١٩٧٨). *Cohesion in English*. London.

ينظر: ابن تيمية. (١٩٧٢). مقدمة في أصول التفسير. بيروت: مؤسسة الرسالة.

ينظر: ابن كثير. (١٩٩٤). تفسير ابن كثير. دمشق، الرياض: دار الفحاء، ودار السلام.

ينظر: أبو اسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي. (٢٠٠٣). الموافقات في أصول الشريعة. بيروت-لبنان: دار الكتب العلمية.

ينظر: أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري. (١٩٨٨). أسباب النزول. بيروت: دار الفكر.

ينظر: أحمد مختار عمر. (١٩٩٨). علم الدلالة. القاهرة.

ينظر: إسماعيل الحسني. (٢٠٠٧). المقام والإفادة من الخطاب الشرعي. الرباط: الرابطة المحمدية للعلماء.

ينظر: الزركشي. (١٩٧٢). البرهان في علوم القرآن. بيروت: المكتبة العصرية.

ينظر: الطبري. (٢٠٠٠). جامع البيان في تأويل القرآن. دمشق: مؤسسة الرسالة.

ينظر: آن روبول جاك موشلار. (٢٠٠٣). التداولية الية "علم جديد في التواصل". بيروت: المنطقة العربية للترجمة.

براون يول. (١٩٩٧). تحليل الخطاب. الرياض.

ينظر: حميد حمداني. (٢٠٠٣). القراءة وتوليد الدلالة؛ تغيير عاداتنا في قراءة النص الأدبي. الدار البيضاء، المغرب:

المركز الثقافي العربي.

ينظر: خلود العموش. (٢٠٠٨). الخطاب القرآني؛ دراسة في العلاقة بين النص والسياق. الأردن: عالم الكتب

الحديثة.

- ينظر: سيد قطب. (٢٠٠٤). في ظلال القرآن. القاهرة: دار الشروق.
- ينظر: عبد السلام المسدي. (١٩٨١). التفكير اللساني في الحضارة العربية. تونس: دار العربية للكتاب.
- ينظر: عبد القاهر الجرجاني. (٢٠٠٥). دلائل الإعجاز. بيروت، لبنان: دار الكتاب العربي.
- ينظر: عبد المنعم خليل. (٢٠٠٧). نظرية السياق بين القدماء والمحدثين دراسة لغوية نحوية دلالية. الاسكندرية: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر.
- ينظر: عبد النعيم خليل. (٢٠٠٧). نظرية السياق بين القدماء والمحدثين؛ دراسة لغوية نحوية دلالية. الإسكندرية: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر.
- ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري. (٢٠٠٤). استراتيجيات الخطاب؛ مقارنة لغوية تداولية. بيروت، لبنان: دار الكتاب الجديد.
- ينظر: فان دايك. (٢٠٠٤). العلاماتية وعلم النص. المغرب.
- ينظر: مصطفى السعدني. (١٩٩٤). المدخل إلى بلاغة النص. الاسكندرية: توزيع منشأة المعارف.
- ينظر: نعمان بوقرة. (٢٠٠٦). نحو نظرية لسانية عربية للأفعال الكلامية؛ قراءة استكشافية للتفكير التداولي في المبنية اللسانية التراثية. الجزائر: اللغة العربية وآدابها.
- ينظر: يحيى بن حمزة العلوي. (١٩٩٥). كتب الطراز. بيروت: دار الكتب العلمية.